شرح قصيدة أبو تمام السيف أَصدَقُ إنبـاءً مِـنَ الكتب

تُعدّ قصيدة الشاعر أبي تمام التي يقول فيها: السيف أصدق إنباءً من الكتب من بين أشهر القصائد في تاريخ الشعر العربي، وفيما يأتي نذكر أبياتًا من هذه القصيدة مع شرح هذه الأبيات:

- **السَيفُ أَصدَقُ أَنباءً مِنَ الكُتُبِ / / / في حَدِّهِ الحَدُّ بَينَ الجِدِّ وَاللَعِبِ**
  بيضُ الصَفائِحِ لا سودُ الصَحائِفِ في / / / مُتونِهِنَّ جَلاءُ الشَكِّ وَالرِيَبِ

يستهل الشاعر أبو تمام هذه القصيدة العظيمة بحكمة صارت مثلًا على ألسنة العرب منذ ذلك العصر قبل أكثر من اثني عشر قرنًا، وهي أنّ السيف في كثير من الأقوات يصير أفضل وأحكم من الكلام؛ أي بمعنى أنّ الفعل أعظم من القول وأكثر من جدوى، فالسيف هو الحد الذي يفصل بين الخسارة والربح، وبين الحق والباطل، وبين الجد واللهو واللعب، وفي بياض هذه السيوف الناصعة والمشرقة تتجلى البطولات العظيمة وتتجلى الأفعال التي سوف تبقى خالدة أبد الدهر، فلا يظل هناك مجال للشكّ ولا للريب ولا التخمين، فالسيف هو أوضح الطرق وأقربها نحو الحقيقة.

- **وَالعِلمُ في شُهُبِ الأَرماحِ لامِعَةً / / / بَينَ الخَميسَينِ لا في السَبعَةِ الشُهُبِ**
  أَينَ الرِوايَةُ بَل أَينَ النُجومُ وَما / / / صاغوهُ مِن زُخرُفٍ فيها وَمِن كَذِبِ

يعود الشاعر في هذين البيتين للتأكيد إلى أنّ الحقيقية والوضوح والتجلي يظهر في رؤوس الرماح وفي حد السيوف عندما تلتقي الجيوش، حيث لا يظل هناك مكان سوى للفعل والقطع والضرب والطعان وليس للأقوال التي لا تشتري شبرًا من الأرض، وليس في أخبار المنجمين التي تُقال في لحظة رخاء وسلام لا في لحظة حرب وخصام، وها نحن الآن بعد أن ضربت سيوفنا رقاب الأعداء، ظهر لنا الفتح المبين ودُحضت تلك الأخبار والتأويلات الكاذبة، وتم فتح عمورية بإذن الله رب العالمين.

- **فَتحُ الفُتوحِ تَعالى أَن يُحيطَ بِهِ / / / نَظمٌ مِنَ الشِعرِ أَو نَثرٌ مِنَ الخُطَبِ**
  فَتحٌ تَفَتَّحُ أَبوابُ السَماءِ لَهُ / / / وَتَبرُزُ الأَرضُ في أَثوابِها القُشُبِ
  يا يَومَ وَقعَةِ عَمّورِيَّةَ اِنصَرَفَت / / / مِنكَ المُنى حُفَّلاً مَعسولَةَ الحَلَبِ
  أَبقَيتَ جَدَّ بَني الإِسلامِ في صَعَدٍ / / / وَالمُشرِكينَ وَدارَ الشِركِ في صَبَبِ

يقول أبو تمام: إنّ الفتح المبين العظيم التي تم في مدينة عمورية هو من أعظم الفتوحات التي تمت في ذلك الوقت، وهو فتح عظيم لا يمكن وصفه ولا يمكن التعبير عنه مهما كتب الشعراء من شعر ومهما كتب الخطباء من نثر، فهو فتح تُفتح له أبواب السماوات، وبه تبرز الأرض مبتهجة بثوب أخضر يشير إلى هذا النصر العظيم الذي لا مثيل له في تلك الفترة.

ثم ينادي الشاعر يوم فتح عمورية، يا أيها اليوم العظيم، الذي غادرتنا فيه الأمنيات لكي تحتفل بهذا النصر الذي يرجع على المسلمين جميعًا بالخير والبركة، فشبه هذا النصر والاحتفال به باحتفال الناقة بلبنها الحلو، ثم يقول: يا أيها اليوم العظيم، لقد صرت يوم مجد للمسلمين جميعًا، حيث يسير بك الإسلام نحو الأمام، وصرت يومًا كئيبًا على المشركين، ففيك ارتفع المسلمون وانحط قدر المشركين بإذن الله رب العالمين.

- **لَقَد تَرَكتَ أَميرَ المُؤمِنينَ بِها / / / لِلنارِ يَوماً ذَليلَ الصَخرِ وَالخَشَبِ**
  غادَرتَ فيها بَهيمَ اللَيلِ وَهوَ ضُحىً / / / يَشُلُّهُ وَسطَها صُبحٌ مِنَ اللَهَبِ
  لَو لَم يَقُد جَحفَلاً يَومَ الوَغى لَغَدا / / / مِن نَفسِهِ وَحدَها في جَحفَلٍ لَجِبِ
  رَمى بِكَ اللَهُ بُرجَيها فَهَدَّمَها / / / وَلَو رَمى بِكَ غَيرُ اللَهِ لَم يُصِبِ

يتحدث الشاعر أبو تمام في هذه الأبيات مع أمير المؤمنين الخليفة المعتصم بالله، فيقول: يا أمير المؤمنين: لقد تركت مدينة عمورية بعد تحقيق هذا الفتح العظيم وهذا النصر الخالد، وبعد أن أحرقت فيها كل ما يمكن إحراقه، حتّى صخور عمورية صارت تغلي من شدة النيران والغضب، وقد غادرتها في بهيم الليل أي في الليل المظلم الداجي الذي صار نهارًا لهول النيران المضرمة في مدينة عمورية، فالنيران أشعلت في عمورية صبحًا جديدًا.

ثم يتابع الشاعر مدح الخليفة المعتصم بالله العباسي؛ فيقول: لو أن أمير المؤمنين المعتصم لم يقدِ الجيش بنفسه لمواجهة المشركين في معركة عمورية، ولو سار وحده لكان جيشًا كاملًا في مواجهة الأعداء لوحده، ولكن الله رب العالمين اختارك يا أمير المؤمنين ورمى بك هذه المدينة لكي تُفتح على يديك، وهذه مشيئة الله التي لولاها لما حصل لنا كل هذا، فالنصر من عند الله رب العالمين.

- **تِسعونَ أَلفاً كَآسادِ الشَرى نَضِجَت / / / جُلودُهُم قَبلَ نُضجِ التينِ وَالعِنَبِ**
  يا رُبَّ حَوباءَ حينَ اِجتُثَّ دابِرُهُم / / / طابَت وَلَو ضُمِّخَت بِالمِسكِ لَم تَطِبِ
  خَليفَةَ اللَهِ جازى اللَهُ سَعيَكَ عَن / / / جُرثومَةِ الدينِ وَالإِسلامِ وَالحَسَبِ
  أَبقَت بَني الأَصفَرِ المِمراضِ كَاسِمِهِمُ / / / صُفرَ الوُجوهِ وَجَلَّت أَوجُهَ العَرَبِ

يصف الشاعر في هذه الأبيات جيش المسلمين؛ فيقول: إنّ المسلمين كانوا قرابة تسعين ألف رجل من الرجال الصادقين الذين نضجت هممهم للقتال وضراب الأعداء وطعانهم قبل أن ينضج التين والعنب، وهنا يقصد الشاعر ما كان يعتقد الرومان، حيث كانوا يظنون أنّ المدينة سوف تُفتح على يد المسلمين في الصيف، وهنا خالفهم المعتصم وقرر فتح المدينة في الشتاء قبل أن ينضج التين والعنب في الصيف، ثم يتعجب الشاعر من الذي حصل في عمورية وكيف أنّ المسلمين اجتثوا دابر الروم وقتلوهم شر قتلة وكيف أثخنوا بهم، وعلى الرغم من كمية الدم التي سالت إلّا أنّها كانت طيبة في نفوس المسلمين، وهذا لو كان في غير موقف الفتح ذاك لما كان مستحسنًا حتّى لو رش عليه المسك.

ثم يخاطب الشاعر الخليفة؛ فيقول له: جزاك الله خيرًا على هذا السعي العظيم الذي قمت به من أجل أن تحمي الدين والمسلمين وتحمي العرب وتاريخ العرب، وبهذا السعي تركت الروم شاحبة وجوههم ومصفرة جلودهم من تلك الهزيمة القاسية التي هزمتهم إياها، وابيضت وجوه العرب بهذا الفتح العظيم الذي سُجّل في التاريخ بالخط العريض.